٤ - العمل الميداني عند العرب

يكاد يجمع علماء الفلكلور على أن العمل الميداني من مستحدثات القرن العشرين وأن أول من زاوله المتخصصون بالدراسات اللغوية والانثروبولوجية في أوروبا وأمريكا . ويغيب عن أذهان الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والإنسانية أن علماء العرب الأوائل كانوا قد مارسوا العمل الميداني منذ ثلاثة عشر قرناً وأن علم اللغة والأدب عند العرب قد قام في بدايته على تدوين الشعر الشفهي والأخبار المتوارثة من أفواه الرواة والإخباريين . وهذا ما سنتكلم عنه فى الصفحات التالية .

لم يخص علماء العرب الأوائل العمل الميداني بمؤلفات مستقلة تبين منهجهم في البحث . وهم في ذلك لايختلفون كثيراً عن علماء الفلكلور في عصرنا الحاضر . فقد أشرنا في بداية هذا البحث إلى ندرة الكتب والمقالات المتعلقة بهذا الموضوع وألمحنا إلى أن الفلكلوريين يرون أن الممارسة أفضل وسيلة لاكتساب الخبرة الضرورية للقيام بالعمل الميداني على الوجه المطلوب . ولكن على الرغم من أن علماء العرب لم يكتبوا بطريقة مباشرة عن المناهج التي اتخذوها في استجواب الرواة وفي جمع واستقصاء المادة اللغوية والأدبية من مصادرها الشفهية إلا أنه يمكننا استنباط ذلك عن طريق تتبع الشواهد والأدلة غير المباشرة والمتناثرة في ثنايا أمهات الكتب .

ولعل أول من حاول جمع هذه الأدلة والشواهد ولمّ شتاتها عبدالرحمن جلال الدين السيوطي في كتابه ***المزهر في علوم اللغة وأنواعها*** [٣٩] الذي كرس فيه ما لا يقل عن فصلين لهذا الغرض : أحدهما عنوانه « معرفة من تقبل روايته ومن ترد »[٤٠] ويضم عدة عناوين فرعية مثل « اللغة تؤخذ سماعاً » و « الأخذ عن الصبيان » و « رواية أشعار المجانين » . . . الخ . وعنوان الفصل الآخر « معرفة آداب اللغوي »[٤١] ويضم عدة عناوين فرعية منها « الرحلة » و « الرفق بمن يؤخذ عنهم » و « ذكر كيفية العمل عند اختلاف الرواة » و « امتحان القادم » . . . الخ .
ومن المؤلفات المعاصرة ، التي لبّت حاجة ملحّة وسدت فراغاً كبيراً ، كتاب

رواية اللغة للدكتور عبدالحميد الشلقاني الذي تطرق فيه بشيء من التفصيل لمناهج البحث الميداني عند علماء البصرة والكوفة(٤٢) . ولا يفوتني أن أنوه بمقالتين كتبهما الدكتور طه الحاجري ، الأولى نشرها في مجلة ***الكاتب المصري*** بعنوان « أبو عبيدة »(٤٣) ، والثانية نشرها في ***مجلة كلية الآداب*** بجامعة الإسكندرية بعنوان « الرواية والنقد عند أبي عبيدة »(٤٤) .

كان البحث الميداني عند علماء البصرة والكوفة في مراحله الأولى يقوم على الأخذ من الأعراب الذين يفدون من البادية لقضاء حوائجهم في سوق المربد عند البصرة أو الكناسة عند الكوفة . ومن العلماء الذين اشتهروا بالأخذ عن هؤلاء الأعراب الوافدين إلى المدن أبو عبيدة والأصمعي والجاحظ . وكان الأصمعي يكتب عن الأعراب في المربد في ألواح(٤٥) . ويقول ياقوت إن الجاحظ « تلقى الفصاحة عن العرب شفاهاً بالمربد »(٤٦) . وأخذ أبو عبيدة عن ابن داود بن متمم بن نويرة شعر أبيه متمم ؛ يقول أبوعبيدة عن هذا الإخباري « قدم البصرة في بعض مايقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فنزل النحيت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه ، جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله »(٤٧) . وقد ذكر الشلقاني أسماء ما يقرب من أربعين أعرابياً وأعرابية أخذ عنهم علماء البصرة(٤٨) .

إلا أن البحث الميداني عند العرب لم يستمر على هذا النمط ، بل اتجه وجهة أخرى ، إذ أخذ العلماء يشدّون الرحال إلى جوف الصحراء ويتغلغلون في أعماق المجتمع البدوي لجمع اللغة والشعر والأمثال من فصحاء العرب الأقحاح . وقد احتد التنافس بينهم في هذا الأمر حتى إن علماء البصرة كانوا يفخرون على علماء أهل الكوفة بقولهم : « نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع (أي البدو الأقحاح) وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ (أي الحضر) »(٤٩) . ويقول أبوعبيدة « أخذنا اللغة من الأعراب البوالين على أعقابهم »(٥٠) .

وفيما ذكره البصريون عن الكوفيين شيء من المبالغة ، فقد رحل علماء الكوفة أمثال الكسائي وأبي عمرو الشيباني وعبدالله بن سعيد الأموي إلى البادية وأخذوا عن

العرب الخلص . يقول ياقوت عن الكسائي « خرج ورجع وقد انفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظ »(٥١) ويقول ثعلب « دخل أبوعمرو إسحاق بن مرار البادية ومعه دستيجتان من حبر فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب »(٥٢) .

ومن علماء البصرة الذين رحلوا إلى البادية أبوعمرو بن العلاء الذي قال عنه أبوعبيدة : « كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »(٥٣) . والأصمعي لا يشق له غبار في هذا المجال . يقول الشلقاني « وأكثر من جال في البادية عبدالملك بن قريب الأصمعي وهو يكاد يذرع البادية فتراه في حمى ضرية يستمع إلى غلام من بني أسد وفي بلاد بني عامر يستنشد رجلاً من أهلها ويناقش أعرابية في منى وفى أودية بني العنبر »(٥٤) . يقول الأصمعي عن تجربته في البادية « سمعت صبية بحمى ضرية يتراجزون ، فوقفت وصدوني عن حاجتي ، وأقبلت أكتب ما أسمع إذ أقبل شيخ فقال : أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع ؟ »(٥٥) ويقول في مناسبة أخرى « كنت أغشى بيوت الأعراب ، وأكتب عنهم كثيراً حتى ألفوني ، وعرفوا مرادي ، فأنا يوم مار بعذارى البصرة ، قالت لي امرأة : يا أبا سعيد ائت ذلك الشيخ ، فإن عنده حديثاً حسناً ، فاكتبه إن شئت . قلت : أحسن الله إرشادك ، فأتيت شيخاً هِمّا فسلمت عليه ، فرد علي السلام ، وقال : من أنت ؟ قلت : أنا عبدالملك بن قريب الأصمعي ، قال : ذو (الذي) يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ؟! قلت : نعم ، وقد بلغني أن عندك حديثاً حسناً معجباً رائعاً ، وأخبرني باسمك ونسبك ، قال : نعم ، أنا حذيفة بن سور العجلاني . . . »(٥٦) .

ويروى عن الأصمعي قوله :

> **سهرت ليلة من ليالي بالبادية ، وكنت نازلاً عند رجل من بني الصيداء من أهل القصيم ، وكان ـ والله ـ واسع الرحل ، كريم المحلّ ، فأصبحت وقد عزمت على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مثواي فقلت : إني قد هلعت من الغربة واشتقت أهلي ولم أفد في قدمتي هذه إليكم كبير علم ؛ وإنما كنت أغتفر وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة فأظهر توجعاً ،**

ثم جفاء ، ثم أبرز غداء له فتغديت معه ، وأمر بناقة له مهرية كأنها سبيكة لجين فارتحلها واكتفلها ، ثم ركب وأردفني وأقبلها مطلع الشمس ، فما سرنا كبير مسير حتى لقينا شيخ على حمار له جمة قد ثمغها كالورس فكأنها قُنّبيطة وهو يترنم ، فسلم عليه صاحبي وسأله عن نسبه ، فاعتزى أسدياً من بني ثعلبة ، فقال : أتنشد أم تقول ؟ فقال : كُلاًّ ، فقال ، أين تؤم ؟ فأشار إلى ماء قريب من الموضع الذي نحن فيه ، فأناخ الشيخ وقال لي : خذ عمك فأنزله عن حماره ، ففعلت ؛ فألقى له كيساً قد كان اكتفل به ، ثم قال : أنشدنا ـ رحمك الله ـ وتصدّق على هذا الغريب بأبيات يعيهن عنك ويذكرك بهن : فقال : إي ها الله إذا ! ثم أنشدني . . . [٥٧] .

ونستطيع أن نستخلص من هذه الشواهد منهج العرب في البحث وطريقتهم في استجواب الإخباريين والتعامل معهم . فنلاحظ مثلاً أن الأصمعي كان بالإضافة إلى جمع النصوص اللغوية والأدبية حريصاً على تحديد مكان جمع المادة وتحديد عمر الإخباري واسمه وقبيلته وغير ذلك من المعلومات التوثيقية التي سبق وأن أشرنا في حديثنا عن الأداء والمؤدين إلى أنها من أساسيات العمل الميداني . ولم يكن ذلك منهج الأصمعي وحده ، بل إننا نجد الحرص نفسه على تدوين هذه المعلومات الأساسية عند أبي عمرو بن العلاء ، كما في قوله « لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أسدي . قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي . قلت : من أي البلاد ؟ قال : من عمان . قلت : فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنا سكنا قطراً لانسمع فيه ناجخة التيار . قلت : صف لي أرضك . قال : سيف أفيح ، وفضاء صحصح ، وجبل صردح ، ورمل أصبح ؛ قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت عن الإبل ؟ قال : إن النخل حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكربها صلاء ، وليفها رشاء ، وخوصها وعاء ، وقروها إناء »[٥٨] .

ويتضح لنا من هذا النص خبرة أبي عمرو بن العلاء ومهارته في استجواب الإخباري واستدراجه إلى الحديث . ولم يكن الأصمعي أقل خبرة من أبي العلاء في هذا المضمار . فقد لاحظنا في نص سابق كيف كان يتودد إلى أحد الإخباريين ويمتدحه قائلاً : « بلغني أن عندك حديثاً حسناً رائعاً » ليستحثه على الإدلاء بما لديه

من أشعار وأخبار . ويبدو أن لهم طرقاً مدروسة في استجواب الرواة والإخباريين الذين يأخذون عنهم . يقول الشلقاني عن هؤلاء الإخباريين : « فكان طلاب اللغة يتعلقون بهم ويستمعون إليهم ، ويكتبون عنهم أو يهيئون لهم الأسئلة بطريقة يفهمها الأعرابي ، وقد يتكلفون في السؤال وضعاً خاصاً يتطلب إجابة خاصة ، وقد يحملونهم على مجرد الكلام »(٥٩) . ويتضح لنا ذلك من هذا الموقف « سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف ، فمر أعرابي محرم فأراد السائل سؤال الأعرابي فقال له أبو عمرو : دعني فأنا ألطف بسؤاله وأعرف »(٦٠) . وفي موقف آخر يناقش أبوبكر بن دريد أبا زيد في مسألة لغوية ويمر بهما أعرابي محرم فأراد ابن دريد أن يسأله فقال له أبوزيد « دعني فأنا أعرف بسؤاله منك »(٦١) .

ولم ينظر العلماء العرب إلى الإخباريين نظرة تكبر واستعلاء أو على أنهم أعراب أميين وبدو أجلاف ، بل كانوا يجلونهم ويحترمونهم . وقد مر بنا كيف أن الأصمعي أخذ بيد أحد الإخباريين ليساعده في النزول من على حماره . كما مر بنا كيف كان أبوعبيدة يقوم بحاجة ابن داود بن متمم بن نويرة ويكفيه ضيعته . وكان أحد الإخباريين وهو شبيل بن عزرة الضبعي يألف حلقة أبي عمرو بن العلاء وكان أبو عمرو يجله ويحترمه ويلقي له لبد بغلته ليجلس عليه(٦٢) . وكان العلماء يحترمون آراء الإخباريين وتفسيراتهم ويأخذون بها وكانوا يحتكمون إليهم في المسائل اللغوية وفي معاني الشعر . والمسألة الزنبورية مشهورة ولا داعي لذكرها هنا لأن الجميع يعرفها . ومن ذلك ما يروى عن الأصمعي أنه قرأ في أحد مجالسه قصيدة لأبي ذؤيب فلما وصل الى قوله « بأسفل ذات الدير أفرد جحشها » قال أعرابي حضر المجلس « ضل ضلالك أيها القارىء ، إنما هي ذات الدبر وهي ثنية عندنا » فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد (٦٣) . وكان رؤبة بن العجاج يفسر أشعار امرىء القيس ليونس بن حبيب(٦٤) .

وهكذا نجد أن العلماء العرب في بحوثهم الميدانية لم يكتفوا بجمع النصوص العارية ، بل كانوا حريصين على جمع المعلومات الضرورية عن الإخباريين ، وكذلك الشروح والتعليقات التي تعينهم على فهم وتذوق مايجمعونه من نصوص أدبية ولغوية . والرحلة إلى البادية مكنتهم من التعرف على طبيعة الصحراء والمجتمع البدوي وبيئته الاجتماعية الصحيحة التي استمد منها صوره وأخيلته ومواضيعه . يقول الشلقاني « لم تقتصر الفائدة المرجوة من هذه الرحلات على مجرد الاطمئنان

والنقل عن خلص الأعراب ، ولكن الرواة تعرفوا على طبيعة هذه الأماكن وعلى طبائع ساكنيها ، وعرفوا نبتها ، وجبالها ، ووديانها وأعانتهم هذه المعرفة على تفسير غوامض الشعر واكتشاف صحيحه من زائفه »(٦٥) . ثم يردف قائلاً « وكذلك تعرّف الرواة على البلدان والأماكن فعادوا يحملون علماً غزيراً غير اللغة ومفرداتها ، عادوا يعرفون بالجزيرة وبمعالمها واستطاع رجل كالأصمعي بسبب توسعه في هذه الرحلات أن يلم إلماماً كبيراً بطبيعة البادية وأن يضع فيها كتاباً يسميه (كتاب جزيرة العرب) »(٦٦) . ونتيجة لهذه النشاطات العلمية حدث تفجر معرفي هائل وألفت الكتب الكثيرة عن أيام العرب وأنسابها وديارها ومواردها وعن نباتات الصحراء وحيواناتها وتضاريسها وغير ذلك من المواضيع التي كانت قد أُلِّفت في الأساس كمرجع لتفسير الشعر الجاهلي إلا أنها استقلت فيها بعد وأصبحت مواضيع قائمة بذاتها .

ولاستيفاء جوانب الحديث عن البحث الميداني عند العرب لا محيص لنا من الإشارة ولو بإيجاز شديد إلى منهج أبي عبيدة معمر بن المثنى كما وضحه الدكتور طه الحاجري في مقالتيه اللتين سبق التنويه بهما . ولا نغالي إذا قلنا إن المنهج الذي اتخذه أبو عبيدة منذ أكثر من إثني عشر قرناً يخوله لأن يحتل مركزاً متقدماً في صفوف علماء اللغة والفلكلور في عصرنا الحاضر .

يقول طه الحاجري إن أصل أبي عبيدة الخزري مكنه من التحرر من ربقة الإلف للحياة العربية ، هذا الإلف الذي يحيط بالعربي ويصد عنه شعور العجب الذي يعتبر من أكثر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قوياً ويراه جديراً بالتسجيل(٦٧) . كان أبوعبيدة راوية مدققاً يسند الأخبار إلى أصحابها ويتحرى الصدق والدقة . وكان لا يتردد في إيراد الروايات المختلفة للخبر نفسه ، ويروي في الموضع الواحد عن عدة رواة ، وهو حريص على استيفاء تفاصيل الصورة بكل أجزائها ويؤديها كما رويت له ، في العبارة والمعنى ، لذلك « كانت روايته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يتمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربي بدوي ، والصورة عربية بدوية خالصة »(٦٨) . هذا الحرص على تمييز الروايات المختلفة وإفراد كل رواية على حدة وإسنادها إلى صاحبها وإيرادها بالعبارة نفسها التي

رويت بها يؤكد على أن أبا عبيدة لا يختلف كثيراً في منهجه عن علماء الفلكلور المعاصرين .

ويتفق أبوعبيدة مع علماء الفلكلور المعاصرين أيضاً من الناحية النظرية . فهو لايجمع قصص العرب وأشعارهم كمادة أدبية ولغوية فحسب ، بل كانت من وجهة نظره مرآة حضارية واجتماعية ومصدراً يعين الباحث على تمثل الحياة العربية قبل الإسلام ، أي أن أبا عبيدة كان حريصاً على معرفة السياق الاجتماعي والإطار الحضاري للشعر العربي وذلك من أجل فهم هذا الشعر فهماً سليماً والتعرف على خصائصه الفنية . يقول الحاجري عن أبي عبيدة :

> **لم يكن من رواة الأخبار بالمعنى القريب اليسير ، فيكفيه من القصة أن يروي حوادثها ، ويسوق أجزاءها ، كيفما اتفق له ، ويظفر من ذلك بإرضاء النزوع الساذج عند العامة . وإنما كان ـ كما أتيح لنا أن نرى من قبل ـ يتعمق ويتغلغل ويستقصي لالتماس المقومات المختلفة للحياة العربية ، حتى يستطيع أن يتمثلها تمثلاً صادقاً شاملاً دقيقاً ، ويتعرف جو هذه الأقاصيص تعرفاً مستبصراً دائباً ، حتى يحيط بوجوهه المختلفة . وقد يكون في تلك الأخبار ، مع هذا التقصي ، مايتيح له بعض ذلك ، ولكن هنالك ـ ولا ريب ـ ما لا يتيحه له غير شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا في ذلك الجو وانطبعوا به ، ولايكاد يجد الوسيلة إليه في غير تلك الصورة الشعرية التي تعبر عنه تعبيراً دقيقاً ، وتصوره تصويراً حياً نابضاً . وبذلك كانت دواعي أبي عبيدة إلى رواية الشعر لا تقف عند المقتضيات القريبة لرواية الخبر ، كما هو الشأن في عامة الرواة . وجدير بمثل هذا الاعتبار أن يرفع من مكانته في رواية الشعر ، ويميزه فيها عن غيره من رواة الأخبار .**
>
> **وكما كان لهذا الاتجاه أثره على ذلك النحو في رواية أبي عبيدة للشعر ، كذلك كان له أثره في مبلغ فهمه له ، وإدراكه لمعانيه . ذلك أن تمثله للحياة العربية الجاهلية هذا التمثل ،**

وإحاطته نفسه بصورها ومدركاتها ، واستغراقه في ذلك ، من شأنه أن يجعله أدنى إلى فهم الصور الفنية الصادرة عنها ، وأدق في إدراكها ، إذ يجعل معرفته للغة بدلالاتها الإفرادية والتركيبية معرفة حيّة متصلة عنده بحقائقها ، لا معرفة حفظ وتلقين فحسب[٦٩] .

من خلال هذا العرض السريع لجهود العرب الأوائل في مجال جمع اللغة العربية والأدب الجاهلي من المصادر الشفهية نرى أن هذه المادة اللغوية والأدبية لا تخرج في طبيعتها عما نسميه في وقتنا الحاضر بالمأثورات الشفهية ، وأن مناهج علماء العرب في جمع هذه المادة وتدوينها لا تختلف كثيراً عن المناهج التي يتقيد بها علماء الفلكلور المعاصرون . ويمكننا أن نقول ذلك أيضاً عن جهود العلماء في جمع الحديث الشريف والتاريخ والأنساب وغير ذلك من المعارف والمأثورات التي تتعلق بحياة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . ومن المعلوم أن العرب قبل ظهور الإسلام كانت أمة لاتعرف القراءة والكتابة لذلك اعتمدت على الرواية الشفهية لحفظ تاريخها وتراثها الأدبي والحضاري . فلما ازدهرت الحضارة العربية ونشطت حركة الجمع والتدوين في العصر الأموي كانت صدور الرجال وشفاه الرواة هي المستودع الذي استقى منه العلماء مادتهم الأساسية .

وقد يعترض بعضهم على تسمية الأدب الجاهلي ، شعره ونثره ، أدبا شفهيا ، أو أدبا شعبياً ، لأنه أصبح في الوقت الحاضر يمثل قمة الفصاحة ودخل في عداد الأدب المكتوب الذي لايحفظه ويتناقله إلا النخبة من المثقفين والمتعلمين . غير أن أصل الأدب الجاهلي شيء وما آل إليه في الوقت الحاضر شيء آخر . فشعراء الجاهلية كانوا شعراء أميين لم يتعلموا لغتهم فى المدارس ، كما نفعل نحن الآن ، ولكن تلقنوها مشافهة من آبائهم وأندادهم ، وتناقلوا شعرهم عن طريق الحفظ والسماع .

ولما ظهر الإسلام وانتشر في البلدان المجاورة ودخلت فيه أمم أخرى غير العرب بدأت اللغة العربية تتغير بسرعة ملحوظة نتيجة اختلاط العرب بالأجناس الأخرى وظهرت لهجات وعاميات تختلف اختلافاً واضحاً عن لغة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، أو ما نسميه الآن اللغة العربية الفصحى . ولم يقض ظهور هذه اللهجات على الفصحى لأن القرآن نزل بها وضمن لها القدسية والخلود والمكانة العالية . لكن

وظيفة الفصحى بدأت تتغير مع التغير اللغوي الذي صاحب انتشار الإسلام . فبعد أن كانت لغة التخاطب والتعبير الشعبي والأدب الشفهي أصبحت لغة الدين والدولة والعلم والفكر والأدب المكتوب . وهكذا أصبحت هناك لغتان : لغة التخاطب العامية التي يتكلمها الإنسان بالسليقة واللغة الفصحى التي يحتاج تعلمها إلى كد وجهد[٧٠] .

من هنا يتضح لنا أن علماء العرب ، وإن اتفقوا مع علماء الفلكلور المعاصرين في طريقة الجمع ومنهج العمل وبعض التوجهات النظرية ، كما أسلفنا القول ، يختلفون عنهم في الأهداف والغايات . كانت الدوافع التي دفعت علماء المسلمين إلى جمع الأدب الجاهلي دوافع دينية تنتهي إلى القرآن . فقد أحسوا منذ البداية أن واجبهم الديني يحتم عليهم المحافظة على اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهبوا ، كما رأينا آنفاً ، لجمع نماذج منها لدراستها واستنباط قواعدها . كان هدفهم الأول والأخير هو تفسير الغريب والمشتبه من معاني القرآن ، وتبيان أوجه المجاز والإعجاز فيه ، والمحافظة عليه من تسرب اللحن إليه . ومما يؤثر عن عبدالله بن عباس ، أول من قام بتفسير القرآن ، قوله « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » . وكان إذا سئل عن شيء من القرآن قال فيه شعراً[٧١] .

وقد اقتصرت جهود علماء العرب في جمع المادة اللغوية والأدبية على زمان معين ومكان محدد . المكان هو وسط الجزيرة حيث تقطن القبائل المشهود لها بالفصاحة التي ظلت بحكم العزلة وعدم الاختلاط مع العناصر الأجنبية تتكلم الفصحى لمدة طويلة بعد أن « فسدت » لغة الأمصار . أما الزمان فهو مايسمى عصر الفصاحة ، أو عصر الاستشهاد ، أو عصر الاحتجاج . ويبدأ هذا العصر من أول نص شعري وصل إلينا من نصوص العصر الجاهلي وينتهي بنهاية القرن الثاني الهجري . ومع نهاية عصر الاحتجاج بدأ دور العربية الفصحى يتقلص واقتصر استعمالها على الكتابة والمخاطبات الرسمية وتغلبت عليها العاميات واللهجات التي حلت محلها في التخاطب اليومي والتعبير الشعبي والأدب الشفهي[٧٢] .

ولم يهتم علماء المسلمين بدراسة اللهجات العامية وآدابها لأنها لا تخدم غرضاً دينياً ، ونظروا إليها بازدراء واستهجان واعتبروها فساداً وانحداراً وليس مجرد

تغير لغوي يحتمه الزمن ، كما يرى اللغويون المحدثون . وفي تلك الأثناء كانت جذوة الإبداع الفكري والابتكار العلمي في مجال الدراسات اللغوية والأدبية والدينية قد بدأت تخبو ليحل محلها التقليد وتتبع أثر السلف . ولم يتمكن العرب من تطوير المناهج والنظريات التي استخدموها في دراسة الأدب الجاهلي وتطبيقها في دراسة اللهجات العامية وآدابها . والمكانة العالية التي تحظى بها اللغة العربية الفصحى عند العرب والمسلمين كرست في أذهان الكثيرين الفكرة الخاطئة التي مؤداها أن اللغة هي المعيار الذي تقاس به جودة الأدب . فجودة الأدب في نظرهم رهن بمدى قرب لغته أو بعدها من لغة الأدب الجاهلي . وابن خلدون ، بفكره الثاقب وفطنته المعهودة ، هو أول من أشار إلى خطأ هذه الفكرة ونبه إلى قيمة الآداب العامية وأهمية دراستها ، يقول في مقدمته :

> **والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد ، وخصوصاً علم اللسان ، يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نباعنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم . فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس . وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام ، كما هو في لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة : فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة . ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك(٧٣) .**